خطاب المفاضلات النثرية بين المدن والأمصار
في كتاب معجم البلدان
لياقوت الحموي ت٦٢٦هـ

"دراسة الدوافع والأنماط الشكلية والسمات الفنية"

د.عبد الكريم بن عبد الله العبدالكريم

عضو هيئة التدريس في كلية اللغة العربية

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

مُلَخَّصُ البَحْثِ

يحاول هذا البحث أن يتلمَّس بعض النماذج الأدبية المنطوية في كتاب "معجم البلدان" لياقوت الحموي ت٦٢٦هـ ؛ حيث يسلِّط الضوء على خطاب المفاضلات النثرية بين المدن والأمصار ، ويحاول أن يبحث في أبرز ما دَفَعَ إليها، والقوالب الشكلية التي تَلَبَّس بها، وألْمَعَ السِّمَات الفنية المتواترة في النصوص التي لَملَمتُها من هذا المعجم .

ويقف البحث شاهداً على أهمية كتب التراث، وبقاء معينها ثَرَّاً لمزيدٍ من الدراسات والأبحاث التي تقدِّم شواهد من أدب العرب الرَّصين، واللغة الراقية، إضافةً إلى طرافة هذا اللون الأدبي "محل الدراسة" الذي تنحرف فيه العاطفة الذاتية إلى عاطفة الجماعة، ويَنصَهِرُ الفرد في المجموعة المكانية، ويتحوَّل الأديب من منافحة الذات والقبيلة إلى منافحة الموطن والبلد.

وفي خطاب المفاضلات النثرية بين البلدان والأمصار نقف على نماذج طريفة من الأدب الذي وقف وراءه حب الوطن، والرغبة في الانتماء، والبحث عن الترويح، وتعظيم الأماكن المقدسة، وتشكلت تلك النماذج في أجناس مختلفة ، وأشكال متعددة كَشَفَت عن رغبة الأدباء في إعلاء شأن بلدٍ ، والنيل من آخر بطرائق متعددة ؛ بحثاً عن التأثير في المتلقين، وإقناعهم بالتحسين أو التقبيح، وقد اشتركت تلك النماذج في بعض السمات الفنية، مضموناً ، وشكلاً، حاولت أن أتلمسها، وأن أقدِّم ما يمكن أن يتسع له نطاق هذا البحث.

أرجو أن تكون هذه الدراسة فاتحةً لدراساتٍ أُخرى لمعجم ياقوت من جهة، وللمفاضلات المكانية شعراً ونثراً من جهة أُخرى.

Prosaic Differential Speech Between the Cities and Countries in "Majam Albldan Book" Countries Dictionary of countries by Yaqoot Al-Hamoudi Year ٦٢٦ AH: studying the Formal Motives and Patterns and the Artistic Features

D. / Abdulkarim Bin Abdullah Al-Abdulkarim

Abstract

This research tries to find some literary models involving in "Majam Albldan Book" Countries Dictionary by Yaqoot Al-Hamoudi, Year ٦٢٦ AH: where it sheds light on the prosaic differential speech between the cities and countries, as well as searching for the most outstanding motivations, their forms, in addition to the most outstanding artistic features mentioned in the collected texts of this dictionary.

This research stands as a witness of the importance of heritage books, as well as the survival as the source of more and more of studies, and researches that provide evidence of the great Arab literature, and highest language, in addition to the originality of this type of literature "under study", where the self-passion moves to be group-passion, as well as the individual becomes one of the spatial group and the author moves from self and tribe supporting citizen and country supporting.

In the prosaic differential speech between the cities and countries, we stand on the interesting models from the literature, which stand behind it the homeland and the desire of affiliation, searing of recreating, and glorification of the holy places, these models have been formed in different types, and various forms that revealed the desire of authors of raising their countries, as well as overcoming the others with different methods, through influence the audiences, and persuading them with improvement or ugliness. These models have been involved in some of the artistic features, content, and form, where I tried to find them, and introducing them as much as this research can have.

Hoping that this research is to be as a beginning for other researches for Yaqoot Dictionary on one hand, and spatial differential, in the terms of poetry and prose from the other hand.

المقــدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وبعد:

فإنَّ المُتَفَحِّص في تراثنا العربي القديم يجد باحاتٍ واسعةً من الأدب الشعري والنثري جديرة بالبحث والاعتناء، وحقيقةٌ بِبَعْثِهَا من مَرْقَدِهَا ، وتقديمها للقراء والباحثين، وكتاب (معجم البلدان) لياقوت الحموي ت٦٢٦هـ واحدٌ من تلك الكتب التراثية المكتظة بالنصوص الأدبية التي جرى بها قلم مؤلفها في طيات حديثه عن المدن والأمصار، وأخَذَت حيزاً واسعاً من معجمه، ودلَّت على معرفةٍ عميقةٍ بالأدب، وسبرٍ لأغواره، وحفظٍ لنماذجه، ودرايةٍ بأربابه ، ولعلَّ كتابه "إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب" يقف شاهداً آخر على هذا الحكم .

ومن خلال رجوعي المتكرِّر إلى"معجم البلدان" استوقفني ما فيه من نماذج أدبية متنوعة، نثريةٍ وشعريةٍ، فاقتربت أكثر، ولَفَتَ نظري ما توارد فيه من نماذج نثرية تقوم على التفاضل بين البلدان والأمصار بلغت من خلال استقرائي للمعجم أكثر من مرة ما يقرب من سبعة وثلاثين نصاً[١] متفاوتة الطول والشكل ، حتى إن ياقوت أفرد لبعض النماذج أبواباً يسرد ما جاء فيها من محاسن ، ويُعقبه ببابٍ آخر للمساوئ، فأغراني إحجام الدارسين عن هذا اللون الأدبي أن أجمع شتات نماذجه، ومن ثَمَّ أدرس نمطه الشكلي، وأبرز دوافعه، وألمع سماته الفنية؛ رغبةً في الوصول إلى شكلٍ من أشكال العلاقة، والتجاذب الإيجابي، أو السلبي بين الأدب والمكان.

وخطاب المفاضلات بين البلدان والأمصار حَضَرَ في أدبنا العربي في عصور مختلفة، وتراءت نماذجه في عددٍ من كتب التراث، وحاول بعض الدارسين إفراد بعض النماذج المعتمدة على التفاضل والتفاخر في كتب مفردة منها على سبيل المثال :

- مفاخرة بين مكة المكرمة والمدينة المنورة، محمد بن سليمان (ت ق ٨هـ)[٢].
- المفاخرات الباهرة بين عرائس متنزهات القاهرة، عز الدين المقدسي (ت٨٢٠هـ)[٣].
- أقراط الذهب في المفاخرة بين الروضة وبئر العرب، السيد عبدالله الوزير (ت١١٤٧هـ)[٤].
- العون في مفاخرات الكون، لمجموعة من المؤلفين[٥].

إنَّ هذه المحاولة تقف شاهداً على تَبَعْثُر النماذج الأدبية في كتبٍ تراثيةٍ لم يقصد مؤلفوها أن تكون خالصة للأدب، كما أنها دالةٌ على أن معين الدراسات الأدبية التراثية لم ينضب ، وأنَّ أرض الدراسات النثرية بخاصة ما يزال بكراً طريفاً يحتاج إلى عناية واهتمام.

وقد قسمتُ بحثي إلى المحاور الآتية:

- **مدخل موجز للتعريف بكتاب "معجم البلدان" ومؤلفه.**
- **الأدب والبلدان (علاقات تجاذبٍ أم تباعد).**
- **دوافع المفاضلات النثرية بين البلدان والأمصار.**
- **خطاب المفاضلات بين البلدان "تصنيف النصوص" .**
- **سمات فنية .**
- **خاتمة**

وعلى كل حال فحسبي أنني اجتهدت، وفتحت باباً من أبواب البحث الأدبي، راجياً أن يكون هذا الجهد موفقاً، وأن يكون العمل خالصاً، والله الموفق.

- مدخل :

حاولت أن أدْلُفَ إلى موضوع الدراسة مباشرةً، من دون الالتفات إلى مقدماتٍ ومداخل ربما تكون من تكرار الحديث، وإعادة المعلوم، غير أني وجدتُ أنَّ الاستهلال لا مناص فيه من التعريف الموجز بكتاب (معجم البلدان) ومؤلفه، فياقوت هو ابن عبدالله الرومي الجنس، الحموي المولى، البغدادي الدَّار ، أُسِرَ صغيراً، واشتراه تاجرٌ اسمه عسكر ابن أبي نصر إبراهيم الحموي ، ودَفَعَهُ لتعلُّم الكتابة والقراءة ، ثم تَعَلُّم النحو واللغة، واستعمله مولاه في أسفاره التجارية، فطاف بلداناً كثيرة، ثم اختلف مع مولاه فأعتقه في سنة ستٍ وتسعين وخمسمائة، فاشتغل بنسخ الكتب بالأجرة، فأفاد من ذلك فوائد عظيمة، ثم إنَّ مولاه عَطَفَ عليه، وأعطاه مالاً ، وأعاده إلى السفر مرةً أُخرى ، فلما عاد وجده مولاه قد مات ، فأعطى أولاده وزوجته ما أرضاهم به، ثم بقيت بيده بقيةٌ جعلها رأس ماله، وسافر بها، واتخذ من تجارة الكتب طريقاً لكسبه.

ويقال: إنَّه كان متعصباً على علي بن أبي طالب-رضي الله عنه- ذلك أنه تأثر ببعض كتب الخوارج التي طَالَعَهَا، وتوجَّه إلى دمشق سنة ثلاث عشرة وستمائة، وقَعَدَ في بعض أسواقها ، ونَاظَرَ متعصباً لعلي بن أبي طالب –رضي الله عنه- فذكر علياً بما لا يسوغ، فثار الناس عليه ثورةً كادت أن تريه حتفه، فانسلَّ من دمشق بعد أن طلبه واليها، واتجه إلى حلب، ومضى يتنقَّل من بلدٍ إلى آخر ؛ خشية إدراكه إلى أن استقرَّ في مَرْو من أرض خراسان، وفي سنة ست عشرة وستمائة اتجه إلى خوارزم ، وصادفه خروج التَّتَر ، فانهزم عنها، وتنقل بين البلدان ، وعانى معاناةً مُرَّة في تنقلاته إلى أن استقر في حلب، وتوفي فيها في العشرين من رمضان سنة ٦٢٦هـ[٦] .

ترك ياقوت عدداً من المصنفات منها : "إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب" و"المشترك وضعاً المختلف صقعاً" و"المبدأ والمآل" و"المقتضب في النسب" وكتاب " معجم البلدان" غايتنا في هذا البحث ، وهو من أبرز كتبه، وأوسع الكتب

التراثية حديثاً عن البلدان والأمصار، مَزَجَ فيه المعرفة بالتَّجربة، والمشاهدة، وراعى في ترتيبه الترتيب الألف بائي، وعُني بضبط المدن، والتفصيل في اشتقاقها، وبيان مواضعها، ومسافاتها، وأقرب المدن الشهيرة إليها، وبعض أخبارها ، ووَصْفِ جوِّها، وبيئتها ، وسمات أهلها، وربما أفرد حديثاً عن مدحها، وآخر في ذمها، وعَمدَ إلى استدعاء الأدلة القرآنية والنبوية، والقصص والحكايات، والأشعار والرسائل، والاسترسال -أحياناً- في تفصيل الأحداث التأريخية، واهتمَّ بردِّ الرِّوايات والأخبار إلى مصادرها، وغالباً ما يختم بذكر مشاهير البلدة، ونُتَفٍ من أخبارهم، وتجلَّى في معجمه سعة اطلاعه، وغزارة معارفه، وكثرة تجاربه ومشاهداته، وعمق علمه اللغوي، ودرايته بأشعار العرب وأدبهم.

وبقي هذا المعجم ممتلئاً بمجالات البحث اللغوية والأدبية، وبخاصةٍ ما أورده في اشتقاق أسماء المدن والقرى ، وبسط آراء العلماء فيها، واستدعاء الشواهد والأدلة ، وتبيَّنت قدرة مؤلفه على الترجيح والمخالفة لعلماء العربية، كما كانت المادة الشعرية العظيمة في هذا المعجم مغريةً لبعض الدارسين، كما في جهد الدكتور عمر محمد الأسعد الذي جمع أشعار معجم البلدان في مجلدين[٧] ، وكذا دراسة الباحثة سارة بنت عبدالعزيز الفيصل حول شعر المكان في معجم البلدان : دراسة أدبية[٨] ، وبقي النثر بعيداً عن عناية الدارسين والنقاد ، اللهم ما كان من دارسي أدب الرحلات، فقد يمموا وجهتهم تجاه معجم ياقوت ، وبقيت باحات أُخرى لم تُصَافحهَا أقلام الباحثين، وهي جديرةٌ بالدَّرس والعناية، ومن أجل هذا حاولت أن ألمس في هذه الدراسة مجالاً من تلك المجالات ، وهو خطاب المفاضلات النثرية بين المدن والأمصار ، عسى أن يكون مُلهِمَاً للدارسين لتَلَمُّس مزيدٍ من مجالات البحث النثري في هذا الكتاب، أو غيره.

- **الأدب والبلدان (علاقات تجاذبٍ أم تباعد):**

حَضَرَت المُدن والأمصار والمواقع المختلفة في أدب الأدباء منذ أن استعان الشاعر الجاهلي بها في مقدمته الطَّلَلِيَّة، فكانت تقليداً للشعراء يبدؤون به

قصائدهم ، فيستحضرون الديار، ويصفون آثارها، ويناجونها ، ثم سَلَكوا لَبُوْسَاً مختلفة في توظيف المدن والأمصار ، مرةً بالوصف ، وأُخرى بإبداء الشوق والحنين، وربما سلَّط عليها الشاعر سياط الهجاء ، وقد ارتسمت بعض الأبيات الملازمة للمكان في ذاكرة الناس، ورددوها عبر الزمن في معانٍ متفرقة من مثل ذكر المدينة في مطلع قصيدة حسان بن ثابت –رضي الله عنه- ت ٥٤هـ التي رثى النبي بها –صلى الله عليه وسلم – فجعل شرفها في ضمِّ جدثه – عليه السلام- يقول حسان[٩]:

بِطَيْبَــةَ رَسْــمٌ للرَّسُولِ ومَعهــد   منيرٌ وقد تَعْفُو الرُّسُــومُ وتَهْمِـدُ
ولا تَمَتَحِي الآياتُ من دار حُرْمَةٍ   بها مِنبَرُ الهَادي الذي كانَ يَصْعَدُ

وأبيات الصمَّة القشيري ت٩٥هـ في نجد لهج بها أهلها منذ القدم إلى يومنا الحاضر حيث يقول[١٠]:

تَمَتعْ من شَمِيْمِ عَرَارِ نجدٍ   فمَا بعد العَشيَّة من عَرَارِ
ألا يَاحَبَّذا نَفحَــاتُ نَجْــدٍ   ورَيَّا رَوْضِهِ غِبَّ القِطَــارِ

ومما جمع فيه الشعراء بين الذم ، والحنين إلى الأوطان قصيدة أبي تمام ت٢٣١هـ التي وصف فيها حاله في نيسابور، وشوقه إلى أرض الشام، ومنها[١١]:

صريعُ هوى تُغَاديه الهُمُــومُ   بنَيْسَـــابُورَ ليسَ له حَمِيْمُ
غَريبٌ ليس يُؤنِسُــه قَــرِيبٌ   ولا يَـأوِي لِغُــــربَتِهِ رَحِيمُ
مُقيمٌ في دِيَارِ نَوَى شَــطُوْن   يُشَــافِهُه بهــا كَمَــــدٌ مُقِيْمُ
فلا عَجَبٌ وإن كَظَّت رِكَابِي   بأرضٍ طَارَ طَائرُهَا المَشُومُ
هي الوطنُ الذي فارَقْتُ فيه   وفَارَقَني المُسَــاعِدُ والنَّدِيمُ
وكنتُ بها المُمَنَّعَ غير وَغدٍ   ولا نَكْــــدٍ إذا حَلَّ العظيمُ
فإن أكُ قد حَلَلتُ بدار هُوْنٍ   صَبَوتُ بها فَقَد يَصبُو الحَلِيمُ

وشكَّل رثاء المدن والممالك الذاهبة ظاهرةً بازغة في أدب الأندلسيين ، ومن منَّا لا يذكر قصيدة ابن الأبَّار ت ٤٣٣هـ التي يقول في مطلعها[١٢]:

أدْرِك بخيلك خيلِ اللهِ أندَلُسَا إنَّ السَّبِيلَ إلى مَنجَاتِهَا دَرَسَا

وقصيدة أبو البقاء الرندي ت ٧٦٧هـ الشهيرة التي استهلها بقوله[١٣]:

لكلِّ شيءٍ إذا ما تمَّ نُقْصَان فلا يُغَرَّ بطيبِ العَيْشِ إنسَانُ

وفي الجانب النثري ارتبطت جملةٌ من الأمثال الشهيرة بالمدن والأمصار من مثل قولهم : (أرْعَنُ من هواء البصرة)[١٤]وقولهم : (آلَفُ من حمام مكة)[١٥] يقول الدكتور عبدالمجيد قطامش: " من دراسة الأمثال التي اشتملت على أسماء البلاد وجدنا أنَّ العرب إنما تمثلوا بها؛ لأنها كانت تمتاز على غيرها بصفاتٍ خوَّلت لهم أن يتخذوا منها نسيجاً ينسجون منه طائفةً من أمثالهم؛ للتعبير عن بعض المعاني التي يقصدون إليها "[١٦].

وربما اتجه المترسلون إلى وصف المدن والأمصار على حدِّ وصف بلاد الهند بقول أحدهم : "بحرها دُرٌّ، وجبالها ياقوت، وشجرها عودٌ، وورقها عطرٌ"[١٧] وكما في كتاب الحجاج لعامله على بلاد أصبهان: " ...وقد وليتُكَ على بلدةٍ حَجَرُها الكحل، وذُبَابُها النَّحل، وحشيشها الزَّعْفَرَان"[١٨].

وسبقت الإشارة[١٩] إلى بعض النماذج التي تمحورت حول المفاضلات بين البلدان والأمصار من مثل المفاضلات التي صنعها بعض الأدباء على لسان مكة والمدينة، والكوفة والبصرة، وغيرها، لكنَّها لم تسجل حضوراً لافتاً، واعتناء واضحاً من الباحثين، والدارسين، وإنما اكتفوا بالإشارة إليها، والإتيان بنماذجها ، من دون التدقيق في سماتها، والتأمل في خصائصها، وقد تبعثرت نماذج من هذا الصنف في معجم ياقوت محل الدراسة.

ولست –هنا- في مقام المستقصي حضور المدن والبلدان في تاريخ أدبنا العربي ، فهذه مهمةٌ أُخرى تحتاج إلى جهدٍ كبير، وعملٍ مضنٍ ، غير أنني أردت بهذه الإلماحة أن أُثبت العلاقة الوثيقة، والحضور البازغ للمدن في الأدب بأجناسه المختلفة، والأهم أن حضورها لا يعني قصدها مباشرة، وإنما هو توظيفٌ لها في النص الأدبي، فالشاعر الجاهلي يَسْتَدعِي الديار في مقدمته، وهي ديار الحبيبة ، وديار الذكريات، فهي قطعةٌ من ماضيه العزيز الذي يثير في نفسه الشوق والحنين، وهو حين يَسْتَحْضِرُها في مقدمة قصائده يَسْتَحضِرُ ذكرياته، ويعود لأيام صباه ، ويُثير في نفسه الأسى والشجو والحنين، فالدِّيار هي الوطن المهجور، وهي الأهل، والصحب والأحبة، والماضي الجميل، فهي قطعة من الماضي العزيز الذي يثير الشوق والحنين[20]...

وفي رثاء النبي –صلى الله عليه وسلم- اتَّخَذَ حسان طيبة الطيبة أداةً يَسْتَذكِرُ بها مآثر الرسول الكريم، ويفصح عن أليم الفَقْدِ، وحجم المصيبة، ورزء الأمة في مصابها بموته –عليه السلام- وهنا افترق حضور المدينة عن حضورها في الجاهلية، يقول الدكتور عالي القرشي: "... ولم تكن إشارة حسان إلى رسوم المدينة بمثل تلك الصورة، فجاء رسم المدينة مفارقاً لما كان في وعي حسان عن الرسوم، ولذلك جاء رسم الرسول بالمدينة حياً على التاريخ،لا يسري عليه عفو الرسوم ، فكانت هذه أول مفارقة لحضور المدينة في الشعر العربي عن شعر الأطلال؛ لارتباطها بحضور الرسول صلى الله عليه وسلم، وحضور ما جاء به من الآيات... مما جعل الذاكرة تتجدد، وتمنح الفضاء المديني وجوداً متجدداً "[21] .

وبكاء المدن والممالك في الأندلس بكاءٌ لطي صفحة من حياة المسلمين في الأندلس، ونفث حسراتٍ على المجد العظيم ،والخلافة الذاهبة، وهكذا تحضر المدن بإيحاءات مختلفة، وبإيماءات غير مباشرة، يحضر لفظها، وتتمدَّد مآلاتها، وربما عمد الأديب إلى الوصف المباشر للمدن، وإبراز محاسنها، واستقصاء مساوئها، وفي كتاب (معجم البلدان) لياقوت الحموي نماذج غزيرة من أدب

البلدان، فمؤلفه أديبٌ وصفه الذهبي ت ٧٤٨ هـ بأنَّه "الأديب الأوحد"[٢٢] وهو محبٌ للأدب، خبير بالأدباء، وكتابه (معجم الأدباء) شاهدٌ على ذلك ، فلا غرو أن تحضر نماذج الأدب الشعرية والنثرية بكثافةٍ في كتابه، وهي نماذج حقيقة بالعناية والاهتمام.

على كل حال ما أردته في هذا المطلب أن أثبت أن بين الأدب والبلدان رحماً وثيقةً، وتعالقاً كبيراً، إما بالإيماء والرمز، أو بالحديث المباشر وصفاً، أو حنيناً، أو نفوراً...، وسجلت البلدان حضوراً متنامياً في الشعر والنثر على السواء منذ العصر الجاهلي وحتى يومنا .

- دوافع المفاضلات النثرية بين البلدان والأمصار :

حبُّ الوطن ،والانجذاب إلى بلد النشأة غريزةٌ فطريةٌ، فالرجل السَّوي يَعْشَقُ أرضه، ويحنُّ إلى موطنه، ويُقَاسِي مرارة الاغتراب، وتَغْشَاهُ وحشةٌ إذا نأى عن أرضه، ولذلك قال أحد الفلاسفة: "فطرةُ الرَّجُل مَعْجُونَةٌ بحبِّ الوَطَن"[٢٣] وقد قيل: "من علامة الرُّشد أن تكون النفس إلى أوطانها مشتاقة، وإلى مولدها توَّاقة"[٢٤]، و "أرض الرَّجل ظئرُه، وداره مَهْدُه"[٢٥]، وقد ترجم أبو تمام ت٢٣١هـ هذا الشعور الغريزي ببيتين شهيرين حين قال[٢٦]:

نَقِّل فُؤادكَ حيثُ شِئتَ من الهَوَى   ما الحُبُّ إلا للحبيبِ الأوَّلِ
كم مَنزلٍ في الأرْضِ يَألَفُـهُ الفَتَى   وَحَنِيْنُهُ أبـداً لأول مَنــزِلِ

ولا تبعد أبيات ابن الرومي ت ٢٨٤هـ شهرة عن البيتين السابقين حين فسر تعلُّق الإنسان بوطنه قائلاً[٢٧]:

ولي وَطَـــنٌ آلَيْتُ ألاّ أبيْعَـــه ... وألا أرَى غَيْري له الدَّهْرَ مَالِكَا
عَهدتُ به شَرْخَ الشَّبابِ ونعمـــةً ... كنعمة قومٍ أصبَحُوا في ظِلالِكَا
وحبَّـبَ أوطـانَ الرجـالِ إلـيهم ... مـآربُ قـضَّاهَا الـشباب هُنَالِكـا
إذا ذكـــروا أوطـــانهـم ذكَّرتهـم ... عهودَ الصِّبـا فيها فحَنُّوا لِذَالِكَـا

وقد ساوى الله –سبحانه وتعالى- بين القتل، والإخراج من الديار في قوله: (ولو أنَّا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليلٌ منهم)[٢٨] وفي المساواة بينهما دلالة على غَوْرِ الألم النَّاجِم عن بُعْدِ الديار، والإكراه على مفارقتها.

إنَّ غريزة حبِّ الوطن، والانجذاب إلى موطن الولادة والنشأة قاد إلى تفضيل الموطن، والمنافحة عنه، والتعصب إليه، وتَضْخِيْم محاسنه، ومواراة مثالبه، ويأتي هذا العامل العام على رأس الأسباب المُفضية إلى قيام أدب المفاضلات بين البلدان والأمصار، الذي لَمْلَمَ ياقوت الحموي نماذج منه في معجمه.

والدين عاملٌ آخر يَنهَضُ بخطاب التفاضل بين البلدان؛ إذ إنَّ عدداً من الأماكن تلبَّست بفضلٍ، أو مزية خَلَعَهَا الإسلام ، فكانت ملازمةً لعبادة من العبادات، أو حظيت بشرف دعوة النبي –صلى الله عليه وسلم – مثل مكة –شرَّفها الله- التي التفت إليها الرسول –عليه السلام- حين أُخرج منها، فقال: "والله إنَّكِ لَخَيرُ أرض الله إلى الله، ولولا أنِّي أُخْرِجتُ منك ما خَرَجت"[٢٩] وهي بلدة ارتبطت بشعائر عظيمة كالحج، والعمرة، وصلاةٌ فيها تعدل مئة ألف صلاة في غيرها، وبها البيت المعمور، والحجر الأسود، وبئر زمزم...

والمدينة النبوية شَرُفَت بدعوة النبي –صلى الله عليه وسلم – بالبركة في مدِّها وصاعها، وقال فيها النبي الكريم-صلى الله عليه وسلم- : "لا يكيد لأهل المدينة أحدٌ إلا انمَاعَ كما يَنمَاعُ الملح في الماء"[٣٠] وقال-عليه السلام- "إنَّ الإيمان لَيَأرِز إلى المدينة كما تأرِزُ الحيَّة إلى جُحْرِهَا"[٣١] ومكة والمدينة يجتمعان في فضل

احتراز الدجال من دخولهما، والحكمة والإيمان مناقب يخلعها النبي-صلى الله عليه وسلم- على أهل اليمن، وهكذا تتعالق المناقب بالدين، فتكون ملاذاً للمخاصم، ومنقبة للمُفاخر، يلجأ إليها، ويتباهى بذكرها.

ومن ألمع أسباب المفاضلات بين المدن والأمصار استقرار قبائل العرب في الحواضر، وانصهار تلك القبائل المتفرقة في مصرٍ واحد، وذوبان العصبية القبلية، وانحرافها إلى عصبيةٍ أُخرى هي عصبية الموطن والبلد، يقول الدكتور إحسان النص: "وثمة عصبيةٌ من لونٍ آخر أوجدها استقرار قبائل العرب في الحواضر والأمصار من مستهل العصر الإسلامي تلك هي عصبية أهل كل مصرٍ بمصرهم، فقد أدَّى اشتراك جماعةٍ من القبائل في سُكْنَى موطنٍ واحد إلى خَلْق ضَرْبٍ من التَّرابط بين أهل المصر على اختلاف قبائلهم، وإلى تعصبهم لبلدهم، وإيثارهم نازلتها على نازلة البلدان الأخرى"[٣٢].

وقد تكون المذهبية والتحزُّب فتيلاً لتلك المفاضلات، فبعض المدن كانت مواطن لبعض المذاهب، وانطلقت منها بعض الثورات، وولدت فيها بعض النِّحَل، وكثر أشياعها، فكانت المنقبة والمثلبة متجهة إلى المدينة، والمراد مذهب ساكنيها، وقد نقل ياقوت عن محمد بن علي بن العباس أنَّه قال لبعض قواده: " أمَّا الكوفة وسوادها فهناك شيعة علي وولده، والبصرة وسوادها فعثمانيةٌ تدين بالكفِّ، وأمَّا الجزيرة فحرورية مارقةٌ، وأعرابٌ كأعلاج، ومسلمون أخلاقهم أخلاق النصارى، وأمَّا الشام فليس يعرفون إلا آل سفيان، وطاعة بني مروان، عداوةٌ راسخةٌ، وجهلٌ متراكم...، ولكن عليكم بأهل خراسان فإنَّ هناك العدد الكثير، والجَلَد الظاهر، وهناك صدورٌ سليمةٌ، وقلوبٌ فارغةٌ لم تَتَقَسَّمها الأهواء..."[٣٣].

وطبيعة البلدان، وجمال أرضها، ونقاء هوائها، وطبيعة أهلها، وسعة الاكتساب بها، وخلوها من الأوبئة والأمراض، دوافع حرَّكت رواكد المشاعر، ودفعت إلى أدب البلدان والأمصار، وجعلت الأدباء يُفَاضِلُون بين بلدٍ وآخر، من مثل كتاب عبدالله بن المعتز ت ٢٩٦هـ إلى صديقٍ له وصف فيه سامراء بأنها " وإن

جُفيت معشوقة السُّكنَى، وحبيبة المثوى ، كوكبها يَقْظَان، وجوُّها عُريان، وحَصبَاؤها جَوْهَر، ونسيمها مُعَطَّر..."[٣٤] ثم سلَّط سياط السخط على بغداد فوصفها بقوله: "جوُّها غُبار، وأرضها خَبَار، وماؤها طين، وترابها سَرجِين...أهلها ذِئَاب، وكلامهم سِبَاب، وسائلهم مَحْرُوم، ومالهم مَكْتُوم..." [٣٥] .

وترتبط بعض الأحداث الذاتية بالمكان إيجاباً أو سلباً، فيتحوَّل المكان رمزاً يحيل إلى ذكريات حميدة، أو حزينة، وتتلازم الأحداث مع مكانها، فتجد البلد الواحد يتناهى في الحسن والعجب عند أديبٍ، ويهوي دركاتٍ من الذم والقبح عند أديب آخر، وليس ذلك إلا من موقفٍ ذاتي، وعاطفةٍ فردية، فبغداد هي عند بعضهم "حَاضِرَةُ الدنيا ، وماعداها بادية"[٣٦] وعند آخر "ضَيقَةُ الدَّار، وسيئة الجِوَار، أهلها ذِئاب، وكلامهم سِبَاب"[٣٧].

والتَّرَفُ الذي حلَّ في البلدان الإسلامية بعد استقرارها، وتَدَثَّرَت به المجتمعات العربية في أكثر أقطارها قاد إلى بعض المفاكهات، والمقاولات التي كان من جملتها أدب التفاضل بين المدن والأمصار، فالاسترواح بين الأدباء يستدعي لوناً من تَلَبُّس الأدباء بالمناضلة عن بلدانهم، والمبالغة في تفضيل بلدٍ على آخر، والتباري في قدرة كل أديب على تصوير محاسن بلده، وانتقاص موطن خصمه، وستأتي نماذج من هذا اللون في أثناء هذه الدراسة –بإذن الله–

- **خطاب المفاضلات بين البلدان "تصنيف النصوص"** :

استطاع ياقوت الحموي أن يحشد في "معجم البلدان" كماً من النصوص الأدبية الشعرية والنثرية المتعلقة بالبلدان والأمصار، وما يعنيني -هنا– هو تلك النصوص النثرية المتعلقة بالتفاضل بين البلدان، فقيود المادة المتغيَّاة هي:

١- النثر.
٢- خطاب التفاضل.
٣- التفاضل بين البلدان والأمصار.

وبعد استقراء معجم البلدان لمَلَمتُ كماً لا بأس به من تلك النصوص التي تَنهَضُ بدراسةٍ موجزة كدراستي هذه ، وحاولت أن أتفحَّص تلك النصوص؛ لاستنتاج أبرز ملامحها، وأوضح خصائصها، فكانت البداية من الدائرة الأكثر اتساعاً؛ ذلك أنني حاولت استقراء الشكل الخارجي للنصوص ، واجتهدت في تصنيفها، فوجدت أنَّ خطاب التفاضل بين البلدان لا يخلو من حالين:

١- **تفضيل مطلق**: وهنا يظهر طرفٌ واحد من معادلة التفاضل، وهو البلد المُستَحْسَن، أو المذموم ، ويغيب الطرف الآخر ليبقى المُفَضَّل عليه عاماً غير مُعيَّن، وتتسع دائرة التفضيل، أو الذم لتترك للمتلقي باحة واسعة للتخمين والتقدير، وهذا اللون يقوم على المبالغة في الاستحسان، أو الاستنقاص، ومثال ذلك قول خالد بن صفوان عن بلدة الأُبُلَّة[٣٨]: "ما رأيتُ أرضاً مثل الأبلة مسافةً، ولا أغْذَى نُطفَةً، ولا أوْطَأَ مَطِيَّةً، ولا أربحَ لتاجرٍ، ولا أخْفَى لعَائذ"[٣٩].

٢- **تفضيلٌ نسبي** ، يعمد الأديب فيه إلى تفضيل بلدٍ على بلد معيَّن ، أو يكون النص بين أديبين يُفضِّل كل واحدٍ منهما بلده على بلد الآخر، فتكون معادلة التفاضل بين بلدين مُعَيَّنين، فمن الأول قول زياد بن أبيه مفاضلاً بين البصرة والكوفة : "لو ضَلَّتِ البصرةُ لَجَعَلتُ الكوفة لمن دلَّني عليها"[٤٠] ومن الثاني ما حصل بين محمد بن عمير العطاردي، وبين عبدالملك بن الأهتم السعدي في مجلس الخليفة عبدالملك بن مروان حين تذاكرا أمر الكوفة والبصرة ، فقال محمد: "الكوفة سَفُلَت عن الشام ووبائها، وارتفعت عن البصرة وحرِّها، فهي برِّيةٌ مَرِيئةٌ مَرِيْعَة..."[٤١] فردَّ عليه عبدالملك بقوله: "نحن والله يا أمير المؤمنين، أوْسَعُ منهم بَرِّية، وأعدُّ منهم في السَّرِيَّة، وأكثر منهم ذُريةً، وأعظم منهم نَفَراً، يأتينا ماؤنا عَفْواً صَفْواً ، ولا يخرج من عندنا إلا سَائِقٌ[٤٢] أو قائد"[٤٣].

وإذا يممت وجهي إلى القالب النصي لخطاب المفاضلات بين البلدان في المعجم أجد أنَّ تلك النصوص قد تشكَّلَت في قوالب مختلفة، وبَدَت في قوالب نثرية متعددة كان من أبرزها:

١- **الرسالة** : من مثل رسالة عبدالله بن المعتز إلى صديقٍ له يمدح سُرَّ من رأى، ويصف ماحلَّ بها من خراب ، ويذم بغداد، ويُبرِزُ معايبها ، يقول في مستهلها: "كتبتُ إليك من بلدةٍ قد أنْهَضَ الله سُكَّانها، وأقعَدَ حِيْطَانَهَا، فشَاهِدُ اليأس فيها يَنطِق، وحبل الرَّجاء فيها يَقْصُر، فكأن عمرانها يُطوى ، وخرابها يُنشَر..."[٤٤].

٢- **النثر المرسل**[٤٥] ، الذي يُرسِلُهُ الأديب على سجيته، عفو خاطره، من دون تنميقٍ، أو رَوِيَّة، أو إمعانٍ وتأمل، غير أنَّه يَصْدُرُ من أرباب فصاحةٍ، وأعيان بلاغةٍ، فيكون محطَّ النظر، ومقصد الرواية، والنقل، وهذا اللون هو الأغلب على ما ورد من نصوص للتفاضل بين البلدان ، ومن ذلك ما يجري في المجالس العامة، وفي المحاورات الآنية، من مثل قول علي بن أبي طالب –رضي الله عنه- : "الكوفة كنز الإيمان ، وحُجَّةُ الإسلام، وسيف الله، ورمحه يضعه حيث يشاء..."[٤٦].

٣- المثل: حيث يأتي خطاب تفضيل المدينة- أحياناً - على هيئة المثل، فتحضر خصائص الأمثال من إيجاز القول، وإصابة المعنى، وسيرورة العبارة، وجودة التشبيه، وغير ذلك من الخصائص التي أشار إليها إبراهيم النظام ت ٢٣١هـ في قوله : "يجتمع في المثل أربعة أشياء لا تجتمع في غيره من الكلام: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، وجودة الكناية فهو نهاية البلاغة"[٤٧] ومن أمثلة هذا اللون في خطاب المفاضلات النثرية بين البلدان قول الصاحب بن عباد في جوابه عن ابن العميد حول بغداد: " بغداد في البلاد كالأسْتَاذ في العباد "[٤٨].

٤- **المناظرة**: ذلك أن بعضهم استعار هذا اللون الذي شاع ، وانتشى في ظلِّ المذاهب والأحزاب السياسية والدينية المختلفة، التي عَمَد أربابها إلى المناظرات، القائمة على البراهين والأدلة، ومقارعة الحجة بالحجة، ودحض المزاعم إلى أن يصل أحد الطرفين إلى إقناع خصمه، وإقناع الجمهور بما آمن به من أفكار[٤٩]، وهذا الأسلوب استعير أيضاً للمفاضلة بين البلدان، يقول ياقوت الحموي في حديثه عن مدينة همذان: "ولاشك عند كل من شاهد همذان بأنها من أحسن البلاد وأنزهها وأطيبها وأرفَهِهَا، ومازالت محلاً للملوك، ومعدناً لأهل الدين

والفضل إلا أنَّ شتاءها مُفرط البرد؛ بحيث قد أُفردت فيه كتبٌ، وذكر أمره بالشعر والخطب ، وسنذكر من ذلك مناظرة جرت بين رجلٍ من أهل العراق يقال له عبدالقاهر بن حمزة الواسطي، ورجل من همذان يقال له الحسين بن أبي سرح ..."[٥٠] وسيأتي ذكرٌ لهذه المناظرة في هذا البحث –إن شاء الله–.

٥- **الأجوبة المفحمة** : وهي كما يقول ابن عبد ربه ت٣٢٨هـ : "أصعب الكلام مَرْكباً، وأعزُّه مَطْلَبَا، وأغمضه مَذْهَبَا، وأضيقه مَسْلَكًا؛ لأن صاحبه يعجل مناجاة الفكرة، واستعمال القريحة؛ حيث يروم في بديهته نقض ما أبرم القائل في رويَّتِه، فهو كمن أُخِذَت عليه الفجاج، وسُدَّت عليه المخارج ..."[٥١] وقد جاءت بعض المفاضلات بين البلدان على هيئة الأجوبة المفحمة من ذلك –مثلاً– ما أورده ياقوت في حديثه عن اليمن قال : "اجتمع زياد بن عبيدالله الحارثي خال السفَّاح بابن هبيرة الفزاري، فقال لزياد: فممَّن الرجل؟ فقال: من اليمن، فقال : أخبرني عنها، فقال: أمَّا جبالها فكروم ووَرْس، وسهولها برٌّ وشعير وذرة، فتغيَّر وجه ابن هبيرة، وقال: أليس أبو اليمن قرداً؟! قال: إنَّما يُكنى القرد بولده، وهو أبو قيس ، فيوجب ذلك أن يكون أبا قيس عيلان، وكان ابن هبيرة قيسياً، قال: فاصفرَّ وجهه، وعَرِقَ جبينه من عظم مالقيه به"[٥٢].

٦- **القصة**، ويأتي تفضيل البلدان –أحيانا –في قالب القصة القصيرة جداً، من مثل ما رواه ياقوت في حديثه عن مدينة"قُزْدَار" -وهي من نواحي الهند- ممتدحاً أخلاق أهلها، وأمانتهم، حين اجتازهم أبو الحسن علي بن لطيف المتكلم، وأعطى ثيابه ومتاعه لخياط في المسجد، فقال له: ضعها في المحراب، فأتاها من الغد فوجد متاعه ، ولم يجد الخياط، فما شك أنَّ الخياط أخذها إلى بيته ، ثم ردَّها في اليوم الثاني إلى المسجد، إلا أنَّ الخياط أفصح له عن بقاء المتاع على حاله منذ وضعه، فبدأ أبو الحسن بمخاصمته، ومعاتبته لتفريطه، فضحك الخياط، ثم قال: "أنتم تعودتم أخلاق الأراذل، ونشأتم في بلاد الكفر التي فيها السرقة والخيانة، وهذا لا نعرفه ههنا، لو بقيت ثيابك مكانها إلى أن تَبْلَى ما أخذها غيرك، ولو مضيت إلى

المشرق والمغرب، ثم عدت لوجدتها مكانها، فإنَّا لانعرف لِصَّاً، ولا فساداً، ولا شيئاً مما عندكم..."[٥٣].

٧- **المنامات**، وهي لونٌ أدبي يتحصَّن به الأديب؛ ليقول ما لايستطيع قوله مباشرة، وعَلَم هذا اللون الأدبي هو أبو عبدالله الوهراني ت ٥٧٥هـ الملقب بركن الدين ،الذي قال ابن خلكان ت ٦٨١هـ عن مناماته : "...وفيها دلالةٌ على خفَّة روحه ، ورقة حاشيته، وكمال ظرفه، ولو لم يكن له فيه إلا المنام الكبير لكفاه، فإنه أتى فيه بكل حلاوة، ولولا طوله لذكرته"[٥٤] وما أريده هاهنا أنَّ خطاب المفاضلات ظهر- في أحيان قليلة- في هيئة المنام من مثل رؤيا الإسكندر في مدينة الإسكندرية حين رأى رجلاً يقول له: "إنَّك تبني مدينة يَذْهَبُ صيتها في أقطار العالم، ويسكنها من الناس مالا يُحصى عددهم، وتختلط الرياح الطيبة بهوائها، ويَثْبُتُ حكم أهلها، وتُصرف عنها السموم والحرور، وتُطوى عنها قوَّة الحرِّ والبرد والزَّمهَرِير، ويُكتم عنها الشرور؛ حتى لا يصيبها من الشياطين خبلٌ، وإن جَلَبَت عليها ملوك الأرض بجنودهم، وحاصروها لم يدخل عليها ضَرَر)[٥٥].

لقد كانت القوالب السالفة هي الأبرز فيما جمعته من نصوص المفاضلات النثرية بين البلدان في هذا المعجم، مع تفاوتٍ واضحٍ في حضور قالبٍ على آخر، غير أن هذا التَّلَوُّنَ يكشف عن تعدُّد الطرائق التي سلكها أدباء هذا اللون؛ ابتغاء التفضيل، أو التقبيح، وكاشفٌ عن تفاوت عاطفة الاندفاع للمفاضلة، وتقدير الموقف، فالرسالة لا تتأتى كما يتأتى التَّرَسُّل، والجواب المفحم يحتاج إلى بديهة ، ويقتضي إحراج الطرف الآخر، وهكذا ...

- **سماتٌ فنية** :

إنَّ المتمعن في نصوص المفاضلات النثرية بين البلدان في كتاب (معجم البلدان) ليلحظ أن ثمة لوازم فنية تشترك فيها معظم النصوص ، وشكَّلت قواسم مشتركة لأغلب النماذج التي حصرتها في هذا المعجم ، ولعلَّ من ألمع تلك

الخصائص الفنية **المبالغة المعنوية** التي عرَّفها أبو هلال العسكري ت٣٩٥هـ بأنها البلوغ "بالمعنى أقصى غاياته، وأبعد نهاياته"[٥٦] ومن مذهب العرب "أن تُبَالِغَ في الوصف والذم، كما من شأنها أن تختصر وتوجز؛ وذلك لتوسُّعِهَا في الكلام واقتدارها عليه، ولكلٍ من ذلك موضع يُستَعمل فيه"[٥٧].

ومعلومٌ أن لغة النثر أدنى إلى العقل، وأقرب إلى الواقع، فتتجلى الأفكار تجلياً منطقياً، على نقيض لغة الشعر المُعتمدة على اللغة الانفعالية، والإيحاء، والشعور، ومباغتة المتلقي، والبعد به عن المستويات الذهنية المعتادة[٥٨]، والخطاب النثري بين البلدان حضرت فيه المبالغة بشكل جلي؛ ذلك أنَّ عاطفة الحب الفطري، والانتصار إلى البلد، والحمية والدفاع تُعمِي الأديب –أحياناً- فتجرُّه إلى البحث عن ذروة الجمال والحسن في كل مناحي الحسن المتوقعة، وإذا كان الميدان بين ندَّين، ولأجل المفاضلة بين بلدتين، فإنَّ الأديب حينئذٍ يوظف طاقاته الفنية؛ بحثاً عن الكمال المطلق لبلدته، والانتقاص المطلق لبلد خصمه، فيستخدم اللفظة، والعبارة، والصورة، والمحسن اللفظي؛ لتحقيق مرامه، وإشباع نهمه، تأمَّل ما كتبه عبدالله بن المعتز إلى صديقٍ له يمدح سُرَّ من رأى، ويذمُّ بغداد، فيصف سرُّ من رأى بأنها "...حبيبة المَثْوَى، كَوْكَبُهَا يَقْظَان، وجوُّهَا عُرْيَان، وحَصَاهَا جَوهَر، ونسيمها مُعَطَّر، وترابها مِسْكٌ أذْفَر، ويومها غَدَاة، وليلها سَحَر، وطعامها هَنِيء ، وشرابها مَرِيء، وتاجرها مَالِك، وفقيرها فَاتِك، لا كبغدادكم الوسخة السماء، الوَمِدَة[٥٩] الهواء، جَوُّها نار، وأرضها خَبَار[٦٠]، وماؤها حَمِيْم، وترابها سرجين[٦١]، وحيطانها نزُوز[٦٢]، وتشرينها تموز، فكم في شمسها من مُحْتَرِق، وفي ظلِّها من عَرِق، ضَيِّقَةُ الدَّار، قَاسِيَةُ الجِوَار، سَاطِعَةُ الدُّخان، قليلةُ الضِّيفَان، أهلها ذِئَاب، وكلامهم سِبَاب، وسائلهم مَحْرُوم، ومالهم مَكْتُوم، لا يجوز إنفَاقُه، ولا يُحَلُّ خِنَاقه، حُشُوشُهم مَسَايل، وطرقهم مَزَابِل، وحيطانهم أخْصَاص[٦٣]، وبيوتهم أقفاص..."[٦٤].

وملحوظٌ في النص السابق أنَّ عبدالله بن المعتز وظَّف طاقات النص الفكرية والأسلوبية؛ لرسم ذروة جمال سرَّ من رأى، وقبح بغداد، فمضمون النص

أتى على الأوصاف الكونية/البيئية بشكلٍ مباشر، وبالغ في الوصف الإيجابي والسلبي من مثل :وصف الحصباء بالجوهر، والتراب بالمسك الأذفر، والجو بالنار، والطرق بالمزابل، وغير ذلك ، وذهب إلى استخدام صيغ المبالغة الشهيرة، وتوظيف ألفاظٍ قرآنيةٍ أسهمت في تعزيز المبالغات؛ ذلك أنَّ اللفظة القرآنية تَسْتَفِزُّ سمع المؤمن، ويتلقَّاهَا بشعورٍ مختلف، ويبقى أثرها مغايراً للألفاظ الأخرى، ومن الألفاظ القرآنية التي استدعاها الكاتب؛ لتعميق المبالغة في وصف المدينتين (حميم/ سائل/محروم) .

كما لجأ ابن المعتز في مفاضلته بين المدينتين إلى انتقاء ألفاظ ذات أثر في تعزيز سمة المبالغة، فحضرت ألفاظ التفضيل المطلق، والذم المقذع من مثل: (جوهر / مُعَطَّر/ مسك/ أذفر/ الوسخة/ الومدة/ نار/ عَرِق/ سباب/ مزابل/ أخصاص...).

والمقابلة والطباق محسناتٌ لفظية وظَّفَهَا ابن المعتز؛ لزيادة غور المبالغة المعنوية، فالنص قائم على ثنائية المدح والذم في وصف التراب، والجو، والنهار، والليل، والأكل والشرب، والإنفاق، وساكني البلد...وهكذا تمضي بقية الطاقات الفنية مكثفةً ألواناً من الحسن والذم المطلق، النائي عن الواقعية؛ لأن المعاني والأوصاف في النص أكبر حجماً من عاطفة الكاتب.

ومن الخصائص الفنية في خطاب المفاضلات بين البلدان بزوغ **بعض اللوازم الأسلوبية**، ومن أبرزها **صيغة التفضيل** (**أفعل**) التي لازمت جلَّ النماذج، من مثل ذم أحدهم لهمذان بقوله: "...على أن بلدكم هذا أشدُّ البلدان برداً، وأكثرها ثلجاً، وأضيقها طُرُقَاً، وأوعرها مسلكاً، وأفقرها أهلاً"[٦٥] وكما في وصف آخر للعراق بقوله : "والعراق أعدل أرض الله هواءً، وأصحها مزاجاً وماءً"[٦٦] ومن ذلك أيضاً قول خالد بن صفوان يصف بلدة (الأُبُلَّة) : "ما رأيت أرضاً مثل الأبلة مسافةً، ولا أغذى نطفةً، ولا أوطأ مَطيَّةً، ولا أربح لتاجرٍ، ولا أخفى لعائذ"[٦٧].

وهكذا تمضي أغلب النماذج ملازمة لتلك الصيغة على مسافات متباينة، تَحْتَشِدُ حيناً؛ لتصوير عاطفة الاندفاع لتفضيل بلدٍ ، أو الحطِّ من آخر، وتنثال في نصوصٍ أُخرى؛ لتصوير عاطفةٍ أكثر اتزاناً وهدوءاً ، وتبقى هذه الصيغة هي الأقرب تناولاً للأدباء في مفاضلاتهم؛ ذلك أن شطراً منها جاء في قوالب شفهية، لا تهب لمنتج النص تريثاً، وتأملاً عميقاً ، وبحثاً عن التصوير والإيماء، وإنما يلوذ بأسرع الأدوات ، وأقربها تناولاً للاستحسان ، أو التقبيح ، وهي صيغة التفضيل (أفعل) .

والعطف لازمةٌ أسلوبية أُخرى في خطاب المفاضلات النثرية بين البلدان تَشِي بتغاير الأوصاف، وتَعدَاد المحاسن أو المساوئ، وإيجاد وحدة كلية للنص، فـ "كلما اشتدَّ دمج الجملة، وقوي شبهها بالمفرد كان العطف أحكم وأوقع، وكانت معاطف الكلام أسلس وألين، ومفاصله أشف وأخفى"[68] ويتعاضد العطف **مع حسن تقسيم الجمل والسجع** ؛ لإيجاد جرس إيقاعي جاذبٍ، وقيمٍ صوتيةٍ مؤثرة تستفزُّ المتلقي، وتقع من نفسه موقعاً حسناً، "والنفس تميل إليه بالطبع "[69] كما يقول ذلك ابن الأثير ت ٦٣٧هـ وهذه غايةٌ من غايات خطاب المفاضلات بين البلدان، المعتمدة على الإقناع والمحاجة ، والتأثير في المتلقين، تأمل ما قاله عبدالقاهر بن حمزة الواسطي في همذان " ...فوجوهكم يا أهل همذان مائلة، وأنوفكم سَائِلَة، وأطرافكم خَصِرَة، وثيابكم مُتَّسِخَة، وروائحكم قَذِرَة، ولحاكم دُخَانِيَّة، وسُبُلُكُم مُنقطعة"[70] وقول محمد بن عمير العطاردي: "الكوفة سَفَلَت عن الشام ووبائها، وارتفعت عن البصرة وحَرِّها، فهي بريَّة مَريئة مَريعَة...، ماؤنا عَذبٌ، وعيشنا خِصْب"[71] فردَّ عليه عبدالملك بن الأهتم السعدي بالأسلوب ذاته قائلاً : "نحن والله يا أمير المؤمنين، أوسع منهم بريَّة، وأعدُّ منهم في السَّريِّة، وأكثر منهم ذُرِيَّة، وأعظم منهم نَفَرَاً..."[72] .

ومن السمات الفنية في خطاب المفاضلات بين البلدان **استلهام الرموز التأريخية** من أحداثٍ وشخصيات، وتوظيفها للتفاضل؛ ذلك أن "الأحداث التاريخية، والشخصيات التاريخية ليست مجرد ظواهر كونية عابرة، تنتهي بانتهاء

وجودها الواقعي، فإنَّ لها إلى جانب ذلك دلالتها الشمولية الباقية، والقابلة للتجدد على امتداد التاريخ في صيغٍ وأشكال أُخرى"[٧٣] ومن أمثلة الاستدعاء التاريخي قول خالد بن صفوان عن اليمن : " ...فما منكم إلا دَابِغُ جلدٍ، أو نَاسِجُ بُردٍ، أو سَائسُ قردٍ، أو راكب عَرْد، دلَّ عليكم هدهدٌ، وغرَّقكم جُرذٌ، وملكتكم أم ولد"[٧٤] فالاستدعاء التاريخي وُظِّف –هنا– للانتقاص والذم، وجاء على سبيل الإيماء السريع ، حيث يُلَوِّح خالد بن صفوان بالرَّمز التاريخي، ويتمدَّد في ذهن المتلقي استحضار الحوادث والقصص ، والبحث عن علائقها بالنص، فتوالت الرموز الآتية: (الهدهد) (الجرذ) (ملك المرأة) في إشاراتٍ واضحةٍ إلى قصة هدهد سليمان، وقصة سد مأرب، وملك بلقيس، ووظِّفَت في جانب الاستنقاص بذكاءٍ كبيرٍ من خالد بن صفوان.

والإطناب سمةٌ من سمات المفاضلات بين المدن والأمصار، وهو كما يعرفه البلاغيون: "زيادة اللفظ على المعنى لفائدة "[٧٥] وقديماً قال الجاحظ :"... قد بَقيَت –أبقاك الله تعالى– أبوابٌ توجب الإطالة، وتُحوج إلى الإطناب، وليس بإطالةٍ مالم يجاوز مقدار الحاجة، ووقف عند مُنتهى البغية..."[٧٦]ونصوص المفاضلات بين المدن والأمصار من تلك الأبواب، فبعض نماذجها اتسم بالإطناب؛ ذلك أن المتكلم يستنفذ طاقته الفكرية معدِّداً المحاسن لموطنه، ويستغرق في إبراز المثالب في موطن خصمه، وتبقى النزعة إلى الانتصار، والرهبة من الخسارة هاجساً في نفس المُفَاضِل، فيجتهد في استغراق الممادح أو المثالب، ولك أن تتأمل على سبيل المثال كيف أطنب أحدهم في نفي المثالب عن العراق حين قال: "وليس بالعراق مشاتٍ كمشاتي الجبال، ولا مصيف كمصيف عمان، ولا صواعق كصواعق تهامة، ولا دماميل كدماميل الجزيرة، ولا جرب كجرب الزنج، ولا طواعين كطواعين الشام، ولا طحال كطحال البحرين، ولا حمى كحمَّى خيبر، ولا كزلازل سيراف، ولا كحرارات الأهواز، ولا كأفاعي سجستان، وثعابين مصر..."[٧٧].

وأغلب **الصور** في خطاب المفاضلات بين البلدان تنزع إلى الوصف الحسي المباشر، وتتشكَّل من ملامح الطبيعة ، وتتكامل الصور الفردية؛ لتكوين لقطةٍ كبيرة لتفضيل بلد، أو استنقاص آخر، ووظيفة الصور في هذا اللون الأدبي انصرفت إلى غاية التحسين، أو التقبيح؛ ذلك أن المُخَاطِب يبتغي إقناع المتلقي "وعندما تصبح الصورة الفنية وسيلة للتحسين والتقبيح؛ فإنها تؤدي إلى ترغيب المتلقي في أمرٍ من الأمور، أو التنفير منه"[٧٨]ومن الصور التي تناثرت في نماذج هذا اللون الأدبي ما يأتي :

- ما قاله أحدهم مجسداً منزلة البصرة ومصر، فهي أجزاء مهمة من هذا الكون الفسيح، كما الطائر الذي يعتد بجناحيه، ويفتقد قيمته بفقدهما، يقول : "مَثُلَت الأرض على صورة طائرٍ، فالبصرة ومصر الجناحان ، فإذا خربتا خربت الدنيا"[٧٩].

- ويستعين بعضهم بالصور الساخرة، التي تهون من شأن بلدةٍ، وتعلي أُخرى، فيكون التصوير الساخر من وسائل الإمتاع في الصورة، كما في قول زياد بن أبيه : "لو ضلَّت البصرة لجعلت الكوفة لمن دلَّني عليها"[٨٠] فهاهنا صورة استعارية ابتغى قائلها أن يوازن بين بلدتين بصورةٍ اعتمد فيها على افتراض ضياع البصرة وتيهها، وقلق زيادٍ واهتمامه الشديد بفقدانها، وتأتي الكوفة –هنا- لتكون مكافأة في يد زياد، يضعها جُعلاً لمن يدلُّه –مجرد دلالة فقط- إلى البصرة ، وهذه الصورة تُظهر هوان الكوفة التي زهد بها ، وهي في يده، وشرف البصرة ، ومكانتها،وكان الملمح الأجمل في هذه الصورة روح السخرية والاستنقاص، واختزال الصورة وتكثيفها.

- وتتوالى الصور الصغيرة لتكوين لقطة كُبرَى للبصرة والكوفة في قول الحجاج بن يوسف: "أمَّا البصرة فعجوزٌ شمطاء، بخراء، دَفْرَاء، أُوتِيَت من كل حلي، وأمَّا الكوفة فبِكْرٌ عاطلٌ عَيْطَاء، لاحلي لها ولا زينة"[٨١] وقد لجأ الحجاج –بذكاء واضح- إلى الصورة؛ ابتغاء تفضيل الكوفة على البصرة بالإيماء والتلويح، وتملَّص

من الحكم المباشر، والاستثارة الصريحة لأهل البصرة، ولذلك عقَّب الخليفة عبدالملك بن مروان على كلام الحجاج قائلاً: " ما أراكَ إلا قد فضلتَ الكوفة"[٨٢].

- ومن الصور المتكررة التي أبلاها كثرة الاستخدام، وأوهنها ديمومة التداول، فهي لا تستفزُّ المتلقي ، وتبدو قريبة من الحقيقة، وتشعر بآنية بعض المفاضلات، أقول: من تلك الصور تصوير إقليم بابل بأنه "موضع اليتيمة من العقد، وواسطة القلادة"[٨٣].

- ومن الصور المتحركة التي أحالت المعاني المجردة إلى هيئات متحركة، وأوقفت المتلقي أمام لقطةٍ حية قول أعرابي سُئل عن همدان: " أمَّا نهارهم فرقَّاص، وأمَّا ليلهم فحمَّال"[٨٤] يعني أنهم بالنهار يرقصون؛ لتدفأ أرجلهم، وبالليل حمَّالون؛ لكثرة ملابسهم.

وتجدر الإشارة إلى أنَّ أدب المفاضلات بين البلدان نَزَعَ إلى الثنائيات في الوصف والمقارنة بين بلدٍ وآخر، فكان **الطباق والمقابلة** من الألوان البديعية الحاضرة بجلاء، وقد أسهمت في تكثيف المعنى، وجلاء الفكرة، ففي حضورهما نوعٌ من التكرير في إنتاج المعنى بطرائق متعددة تسهم في إقناع المتلقي، وهذا ما يرومه المُخَاطِب هنا ، وفي التناقض الذهني تناسبٌ على نحوٍ من الأنحاء كما يقول الدكتور محمد عبدالمطلب[٨٥]، ومنتج النص صنع من البلدتين طرفي الطباق أو المقابلة ،كما نلحظ ذلك بين البصرة والكوفة، ومصر والشام، والإسكندرية والفسطاط، وغير ذلك.

والمعجم اللفظي الوارد في نماذج المفاضلات بين البلدان بَرَزَت فيه ألفاظ الاستحسان والإشادة التي بلغت حدَّ السَّرَف والمبالغة، ويقابلها ألفاظ الإقذاع والإسفاف ، وبينهما ألفاظٌ تنتمي إلى حقل الألفاظ الكونية، والجسدية التي يبتغيها المتكلم للوصف سلباً، أو إيجاباً، لمظاهر البلد، أو سمات أهله ، وأطلَّت بعض الحقول الدلالية إطلالةً أقل، كحقل الألفاظ الدينية، وحقل الأوباء والأمراض، وهي

دالةٌ على أبرز المضامين التي طرقها أرباب هذا اللون الأدبي، ودونك بعض النماذج الدالة على ما ذكرت:

الحقل الدلالي	النماذج
الإشادة والاستحسان	جنة الأرض- الطيبة-غرة البلاد-أهل العقول الصحيحة-تاجرها ملك-حاضرة الدنيا....
الذم والاستنقاص	حشوش الدنيا - أم نَتن-مزابل- الوسخة - ضيقة الدار- ذئاب-لعن الله -ولعن ساكنيه
الطبيعة	كوكبها يقظان- حصاها جوهر- نسيمها مُعطَّر- ساطعة الدخان-أشد البلدان برداً، وأكثرها ثلجاً-ماؤنا عذب-ريح الشمال
الدين	قبة الإسلام-أهل الله-خذوا الحلال الحرام عن أهل الكوفة-قبر نبي الله المرسل-فينا تلاوة كتاب الله-دار الخلافة-مدينة الإسلام-خراسان كنانة الله...
الإنسان	وهم جند-أي أهل خراسان- لهم أبدان وأجسام ومناكب وكواهل وهامات ولحى وشوارب، وأصوات هائلة، ولغات فخمة تخرج من أجواف منكرة-فوجوهكم يا أهل همذان مائلة، وأنوفكم سائلة، وأطرافكم خصرة، وثيابكم متسخة، وروائحكم قذرة
الأوباء والأمراض	دماميل الجزيرة-جرب الزنج-طواعين الشام-حمَّى خيبر...

والجملة الاسمية حَضَرَت بجلاءٍ في نماذج المفاضلات النثرية بين البلدان؛ ذلك أن الجملة الاسمية دالةٌ على الثبات والدوام[٨٦] وهذه غاية المُفاضِل، فهو يرمي

إلى إثبات محاسن بلده ، وإثباتها ، وإلصاق المثالب ببلدٍ آخر ، ومن ذلك على سبيل المثال قول الزجاج عن بغداد: " بغداد حَاضِرَةُ الدنيا، وما عداها بَادِيَة"[٨٧] وقول أبي الفرج الببغا عن بغداد أيضاً: "...وإنَّ هواءها أغذى من كلِّ هواء، وماءها أعذب من كلِّ ماء، وإنَّ نسيمها أرقُّ من كلِّ نسيم"[٨٨]، وكقول خالد بن صفوان يصف البصرة : "...بُيُوتُنَا الذَّهَب، ونهرنا العَجَب، أوله الرُّطَب، وأوسطه العنب، وآخره القَصَب"[٨٩].

وإذا ما صادفتُ جملاً فعلية في النصوص، فإنما استجلبها المتكلم؛ رغبة في الدلالة على تجدد المحاسن ، أوالمثالب، ومن ذلك وصف عبدالقاهر الواسطي لشتاء همذان بأنه "يَهْدِمُ الحيطان، ويُبرِز الحصان، ويُفسِد الطرق، ويشعث الآطام، فطرقكم وحلة، تتهافت فيها الدَّوَاب، وتتقذَّر فيها الثياب، وتتحطَّم الإبل، وتخسف فيها الآبار، وتفيض المياه، وتهيج الرياح والعواصف..."[٩٠] وكأنَّ تلك الأوصاف تتجدَّد مع كل شتاء يحلُّ على همذان.

والأسلوب الإنشائي يثير المتلقي ، ويشد انتباهه، ويزيد من نُهمته، واستخدامه في خطاب المفاضلات كان على سبيل الاستحسان لبلدةٍ، والانتقاص من أُخرى، وكان أداةً من أدوات المبالغة ، وطريقةً من طرائق التعبير عن الفكرة بأكثر من قالبٍ أسلوبي، تأمل على سبيل المثال كيف استطاع مسلمة بن عبدالملك أن يفاضل بين البلدان متخذاً من الأسلوب الإنشائي وسيلة لذلك التفضيل؛ وذلك حين وفد على عبدالملك بن مروان وفود من أمصار متفرقة، وكان مسلمة قد اتخذ مصانع له، فسأل عبدالملك أن يأذن للوفود في الخروج معه إلى تلك المصانع ، فلما نظر إليها أقبل على وفد مكة فقال: "يا أهل مكة، هل فيكم مثل هذه المصانع؟! فقالوا : لا، إلا أنَّ فينا بيت الله المُستَقبَل، ثم أقبل على وفد أهل المدينة، فقال: يا أهل المدينة، هل فيكم مثل هذه؟! فقالوا:لا، إلا أن فينا قبر نبي الله المُرسَل، ثم أقبل على وفد أهل الكوفة، فقال: يا أهل الكوفة، هل فيكم مثل هذه المصانع؟! فقالوا: لا، إلا أنَّ فينا تلاوة كتاب الله المُنَزل..."[٩١].

وتبقى هذه الإلماحات هي أبرز ملامح السمات الفنية، والظواهر المتواترة في خطاب المفاضلات النثرية بين البلدان والأمصار في معجم ياقوت، وآثرت أن أُجمِل أهمها ، وأكثرها بزوغاً في النماذج، وأعرضت عن سماتٍ فنيةٍ أُخرى تبدو في أنموذجٍ ، وتخبو في آخر، ولا تمثل سمة عامةً لهذا اللون الأدبي.

-الخاتمة :

إنَّ الحديث عن خطاب المفاضلات النثرية بين البلدان والأمصار في كتاب "معجم البلدان" لياقوت الحموي ت٦٢٦هـ؛ ليكشف عن التركة التراثية التي ما زالت منجماً للدارسين والباحثين يُقَدِّمُونَهَا نماذج من الأدب الرصين، واللغة الراقية، والإبداع الماتع إلى الجمهور اللاهث وراء نماذج الأدب التراثي، وهي نماذج مهمة تبني أجيالاً من المبدعين ، وتؤسس لبنات يبعث الأديب منها جديد إبداعه، في وقت أصبح المتلقي يقرأ نماذج ضعيفة البناء، بعيدة التصوير، لا يمسك القارئ من معناها إلا كما يمسك القابض على الماء ، وهاهنا تتأكد أهمية المثال المُحتذى .

وفي خطاب المفاضلات النثرية بين البلدان والأمصار نقف على نماذج طريفة من الأدب الذي وقف وراءه حب الوطن، والرغبة في الانتماء، والبحث عن الترويح، وتعظيم الأماكن المقدسة، وتشكَّلت تلك النماذج في أجناس مختلفة ، وأشكال متعددة كَشَفَت عن رغبة الأدباء في إعلاء شأن بلدٍ ، والنيل من آخر بطرائق متعددة ؛ بحثاً عن التأثير في المتلقين، وإقناعهم بالتحسين أو التقبيح، وقد اشتركت تلك النماذج في بعض السمات الفنية، مضموناً ، وشكلاً، حاولت أن أتلمسها، وأن أقدِّم ما يمكن أن يتسع له نطاق هذا البحث.

وفي الحديث عن المفاضلات النثرية تنكشف مساحة ضئيلة من مساحات البحث النثري الذي لم يلق عناية من الدارسين كما لقيها قسيمه الشعر، وقد كررت

كثيراً كلمات للدكاترة زكي مبارك في مقدمة كتابه "النثر الفني في القرن الرابع الهجري" تنم عن دعوة المتخصصين أن يبذلوا مزيداً من الجهد تجاه النثر الأدبي بأجناسه المختلفة[٩٢].

وجديرٌ بالدارسين أن يلتفتوا إلى هذا اللون الأدبي الذي تفرقت نماذجه في عصور الأدب المختلفة، وفي مصادر ذات تخصصات متباينة، تحتاج إلى جمعٍ لأشتاتها، وتلمُّس لأبرز سماتها، كما أن خطاب المفاضلات الشعري بين البلدان والأمصار حقيقٌ بالعناية أيضاً، وإقامة موازنة بينه ، وبين الخطاب النثري.

وربما خصَّ الدارسون والنقاد المكان بعنايةٍ وبحثٍ في مجال الرواية والقصة، وبقيت دراسة المكان في الأجناس الأدبية الأخرى أقل حضوراً وعناية ، على الرغم من حضور المكان في أجناس أدبية أخرى، وإغرائه للدارسين بالوصول إلى نتائج طريفة، تكشف عن مسارب دقيقة في النصوص المكانية شعرية أو نثرية.

إنَّ كتاب "معجم البلدان" لياقوت الحموي مليءٌ بمدارات متعددة للبحث الأدبي واللغوي، فقد اكتظَّ بالنماذج الشعرية والنثرية، وبدا للقارئ انجذاب المؤلف إلى الأدب، وعنايته الكبيرة به، كما كان وقوفه مع اشتقاق الكلمات، وضبطها مغرياً لدارسي اللغة والصرف بتتبع ترجيحاته، وإبراز جهوده اللغوية.

أسأل الله أن يوفقنا إلى كل خير ، وأن يكون العمل خالصاً وموفقاً ، والله ولي التوفيق.

الهــوامــش والتعليقات

١. لم تكن غايتي من الدراسة الجمع والتوثيق، وإنما كنت معنياً بالبحث عن أبرز سمات تلك النصوص، وإبراز هذا اللون النثري الذي يستحق أن يفرد بدراسة أوسع.
٢. تحقيق : محمد الششتاوي، دار الآفاق العربية،ط:١، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.
٣. تحقيق : محمد الششتاوي، دار الآفاق العربية، :١، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.
٤. تحقيق:عبدالله محمد الحبشي، الدار اليمنية للنشر والتوزيع،ط:١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
٥. تحقيق :محمد الششتاوي، دار الآفاق العربية، ط:١ ،١٤٢١هـ/٢٠٠١م.
٦. انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء ، للذهبي، تحقيق د.بشار عواد معروف، ود.محيي هلال السرحان،مؤسسة الرسالة، ط:١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ٢٢:/٣١٢، ووفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لابن خلكان، تحقيق د.يوسف طويل،ود.مريم طويل، دار الكتب العلمية-بيروت، ط١ ،١٤١٩هـ/١٩٩٨م :١٠٣/٥-١١٣، ومعجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة، د.ت:٨٣/٤، وياقوت الحموي الرومي: الجغرافي الرحالة والمؤرخ الكاتب،جورج خليل مارون،دار الفكر العربي-بيروت، ط:١، ٢٠٠٣م.
٧. صدرت عن دار النفائس ، بيروت ١٩٩١م
٨. رسالة ماجستير في قسم الأدب، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.
٩. انظر : ديوانه ،تحقيق د.وليد عرفات،دار صادر –بيروت،٢٠٠٦م : ٤٥٥/١.
١٠. شرح ديوان الحماسة،للمرزوقي، تحقيق: أحمد أمين، وعبدالسلام هارون، دار الجيل –بيروت، ط:١، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م:١٢٤٠/٣.
١١. انظر: شرح ديوان أبي تمام ، الخطيب التبريزي، مراجعة :راجي الأسمر، دار الكتاب العربي-بيروت،ط:٢، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م: ٤٢٧/٢
١٢. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب،الشيخ أحمد التلمساني، تحقيق : إحسان عباس،دار صادر- بيروت ، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م:٣٠٣/٣.
١٣. السابق : ٤٨٧/٤.

١٤. مجمع الأمثال ، لأبي الفضل أحمد الميداني ، تحقيق:محمد أبو الفضل إبراهيم،دار الجيل –بيروت،ط١٤١٦هـ / ١٩٩٦م :٨٧/٢.
١٥. السابق: ١٥٠/١.
١٦. الأمثال العربية "دراسة تاريخية تحليلية" ، د. عبدالمجيد قطامش، دار الفكر – دمشق ط:١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م : ٤٥٨.
١٧. المستطرف في كل فن مستظرف ،للأبشيهي ،منشورات دار مكتبة الحياة-بيروت، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م : ٢٦/٢.
١٨. السابق:٢٦/٢.
١٩. انظر : مقدمة هذا البحث.
٢٠. انظر: الشعر الجاهلي "خصائصه وفنونه" د.يحيى الجبوري، مؤسسة الرسالة ،ط:٩، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م:٢٤٥.
٢١. مقالة "النص الشعري وفضاء المدينة المنورة"د.عالي القرشي،جريدة الرياض، العدد١٤٨٥٧ بتاريخ١ربيع أول١٤٣٠هـ-٢٦ فبراير٢٠٠٩م.
٢٢. سير أعلام النبلاء :٣١٣/٢٢.
٢٣. الحنين إلى الأوطان، المنسوب إلى الجاحظ،دار الرائد العربي-بيروت،ط:٢ ،١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢: ١٠.
٢٤. المحاسن والمساوئ ، للبيهقي، دار الكتب العلمية-بيروت،ط:١،١٤٢٠هـ/١٩٩٩م: ٢٢٩.
٢٥. الحنين إلى الأوطان: ٨، والظئر :العاطفة على غير ولدها، المرضعة له من الناس والإبل.انظر: اللسان "ظأر".
٢٦. ديوانه:٢٩٠/٢.
٢٧. ديوانه،شرح الأستاذ أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية-بيروت، ط:٣،١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م:١٤/٣.
٢٨. سورة النساء، آية :٦٦.

٢٩. سنن الترمذي "كتاب المناقب" باب "فضل مكة"رقم الحديث ٣٩٢٥ : ٧٢٢/٥.

٣٠. أخرجه البخاري في كتاب "فضائل المدينة" باب "إثم من كاد أهل المدينة " رقم ١٨٧٧: ٢٤/٢.

٣١. أخرجه البخاري في كتاب "فضائل المدينة" باب"الإيمان يأرز إلى المدينة" رقم ١٨٧٦: ٢٣/٢.

٣٢. العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي، د.إحسان النص،دار اليقظة العربية، د.ت :١٧٤.

٣٣. معجم البلدان، ياقوت الحموي، تحقيق:فريد عبدالعزيز الجندي، دار الكتب العلمية- بيروت، ط:١، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م: ٤٠٣/٢.

٣٤. السابق: ٥٥٠/١.

٣٥. السابق.

٣٦. السابق:٥٤٧/١.

٣٧. السابق:٥٥٠/١.

٣٨. بلدة على شاطئ دجلة، وهي أقدم بناء من البصرة. انظر: السابق :٩٩/١.

٣٩. معجم البلدان: ٥٩٩/٤ .

٤٠. السابق :٥١٨/١.

٤١. السابق :٥٩٩/٤.

٤٢. أي قائد للجيش والناس .

٤٣. السابق .

٤٤. السابق: ٥٥٠/١، ووردت في موضع آخر : ١٩٩/٣.

٤٥. مصطلح الترسل من المصطلحات التي دار حول تحديد ماهيته كلامٌ طويل ، فمن قائلٍ: إن المقصود به فن الرسائل وهو الشائع، ومن قائل: إنه فن النثر المُرسل الذي لا يعتني فيه كاتبه بالصنعة، ويرسله على سجيته، وقديماً ذكر ابن خلدون ت ٨٠٨هـ أن الترسل هو: إطلاق الكلام إطلاقاً، ولا يقطِّع أجزاءً، بل يرسل إرسالاً من غير تقييد بقافية ولا

غيرها (المقدمة :٤٨٦) وما قصدته في حديثي أنَّ جملة من المفاضلات –هنا- جاءت في مقامات عامة، ومجاوبة بين طرفين، أو حديث في مجلس، فغلبت على نماذجه السجية، والطبع ، ولم يكن ضمن الأجناس النثرية المتعارف عليها بين النقاد والدراسين،...(انظر : تاريخ الترسل النثري عند العرب في الجاهلية، د.محمود مقداد ، دار الفكر المعاصر-بيروت، ط:١، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م:١٤٢، والمعجم المفصل في الأدب، د.محمد التونجي،دار الكتب العلمية-بيروت،ط:١، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م:١/٢٤٣) .

٤٦. معجم البلدان :٤/٥٩٩.
٤٧. مجمع الأمثال :١/٧-٨ .
٤٨. معجم البلدان: ١/٥٤٧.
٤٩. انظر : مقالة "منهج المناظرة في التراث وأدبيّات الحوار" مجلة التراث العربي، اتحاد الكتاب العرب-دمشق ، العدد ٩١ – السنة الثالثة والعشرون – رجب ١٤٢٤هـ/ أيلول "سبتمبر" ٢٠٠٣م.
٥٠. معجم البلدان : ٥/٤٧٣.
٥١. العقد الفريد، تحقيق:د.عبدالمجيد الترحيني، دار الكتب العلمية-بيروت،ط:١، ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م:٤/٨٩.
٥٢. معجم البلدان : ٥/٥١٢.
٥٣. السابق: ٤/٣٨٨.
٥٤. وفيات الأعيان :٥/١٨٥.
٥٥. معجم البلدان: ١/٢١٨.
٥٦. الصناعتين الكتابة والشعر، لأبي هلال العسكري، تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلمية-بيروت، ط:٢ ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م:٤٠٣.
٥٧. البرهان في وجوه البيان، لابن وهب الكاتب : ١٥٣.
٥٨. انظر: اللغة العليا"دراسات نقدية في لغة الشعر" د.محمد معتوق، المركز الثقافي العربي، ط:١، ٢٠٠٦م: ٣٠

٥٩. الومد : الحر والرطوبة المرتفعة . انظر: اللسان : (ومد).
٦٠. الخبار ما استرخى من الأرض . انظر : (اللسان: خبر).
٦١. في لسان العرب السِّرجين، والسَّرجين : ما تُدمَل به الأرض (سرجن).
٦٢. أي ذات نزٍّ ، والنز : ماتحلَّب من الأرض من الماء . انظر: (اللسان: نزز).
٦٣. الخص : البيت من الشجر أو القصب . انظر : (اللسان :خصص).
٦٤. معجم البلدان:٣/٢٠٠.
٦٥. معجم البلدان: ٥/٤٧٤.
٦٦. السابق:٤/١٠٧.
٦٧. السابق:١/٩٩.
٦٨. دلالات التركيب"دراسة بلاغيية"د.محمد محمد أبو موسى،مكتبة وهبة-القاهرة،ط:٢، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م : ٢٨٦ .
٦٩. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لابن الأثير ،تحقيق: كامل محمد عويضة،دار الكتب العلمية-بيروت، ط:١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م :١/١٩٣.
٧٠. معجم البلدان: ٥/٤٧٤.
٧١. السابق: ٤/٥٥٩.
٧٢. السابق.
٧٣. استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، د.علي عشري زايد، دار غريب-القاهرة، ٢٠٠٦م: ١٢٠.
٧٤. معجم البلدان:٥/٥١٢.
٧٥. علم المعاني بين بلاغة القدامى وأسلوبية المحدثين، د.طالب محمد الزوبعي، منشورات جامعة قازيونس،ط:١ ، ١٩٩٧م : ٤٠٧.
٧٦. الحيوان، تحقيق :عبدالسلام هارون، مكتبة مصفى بابل الحلبي، ط:٢، ١٣٨٦هـ/١٩٦٧م: ٦/٧.
٧٧. معجم البلدان :٤/١٠٧.

٧٨. الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، د.جابر عصفور، المركز الثقافي العربي، ط : ٣ ، ١٩٩٢م :٣٥٣.
٧٩. السابق:١٦١/٥.
٨٠. السابق : ٥١٨/١.
٨١. السابق: ٥٥٩/٤.
٨٢. السابق.
٨٣. السابق:١٠٧/٤.
٨٤. السابق: ٤٧٥/٥.
٨٥. انظر: البلاغة العربية ، د.محمد عبدالمطلب"قراءة أخرى" مكتبة لبنان "ناشرون"-بيروت، ١٩٩٧: ٣٥٥.
٨٦. دلائل الإعجاز،عبدالقاهر الجرجاني،دار المدني-جدة،ط:٣ ،١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م:١٧٤.
٨٧. معجم البلدان: ٥٤٧/١.
٨٨. السابق.
٨٩. السابق: ٥١٩/١.
٩٠. السابق: ٤٧٤/٥.
٩١. السابق: ٥١٩/١.
٩٢. يقول الدكتور زكي مبارك : (ينبغي أن نقيِّد في صدر هذا الكتاب أن النقاد لم يعطوا للنثر ما أعطوا للشعر من العناية ...) النثر الفني في القرن الرابع ، المكتبة العصرية-صيدا، د.ت : ١٧/١.

المصادر والمراجع

١- استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، د.علي عشري زايد، دار غريب-القاهرة، ٢٠٠٦م.

٢- أقراط الذهب في المفاخرة بين الروضة وبئر العرب تحقيق:عبدالله محمد الحبشي، الدار اليمنية للنشر والتوزيع،ط:١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

٣- الأمثال العربية "دراسة تاريخية تحليلية ،د.عبدالمجيد قطامش، دار الفكر – دمشق ط:١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

٤- البلاغة العربية ، د.محمد عبدالمطلب"قراءة أخرى" مكتبة لبنان "ناشرون"- بيروت، ١٩٩٧.

٥- تاريخ الترسل النثري، د.محمود مقداد ، دار الفكر المعاصر-بيروت، ط:١، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م .

٦- الحنين إلى الأوطان، المنسوب إلى الجاحظ،دار الرائد العربي-بيروت، ط:٢، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢.

٧- الحيوان، تحقيق :عبدالسلام هارون، مكتبة مصفى بابل الحلبي، ط:٢، ١٣٨٦هـ/١٩٦٧م.

٨- دلائل الإعجاز، عبدالقاهر الجرجاني، تحقيق محمود شاكر، دار المدني- جدة،ط:٣ ،١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

٩- دلالات التركيب"دراسة بلاغية"د.محمد محمد أبو موسى،مكتبة وهبة- القاهرة،ط:٢ ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م.

١٠- ديوان ابن الرومي، شرح الأستاذ أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية- بيروت، ط:٣ ، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

١١- ديوان حسان بن ثابت ، تحقيق د.وليد عرفات، دار صادر –بيروت،٢٠٠٦م.

١٢- سير أعلام النبلاء ، للذهبي، تحقيق د.بشار عواد معروف، ود.محيي هلال السرحان،مؤسسة الرسالة، ط:١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

١٣- شرح ديوان أبي تمام ، الخطيب التبريزي، مراجعة :راجي الأسمر، دار الكتاب العربي-بيروت، ط:٢، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

١٤- شرح ديوان الحماسة،للمرزوقي، تحقيق: أحمد أمين، وعبدالسلام هارون، دار الجيل –بيروت، ط:١، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

١٥- الشعر الجاهلي "خصائصه وفنونه" د.يحيى الجبوري، مؤسسة الرسالة ،ط:٩، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

١٦- الصناعتين الكتابة والشعر، لأبي هلال العسكري، تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلمية-بيروت، ط:٢ ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.

١٧- الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، د.جابر عصفور، المركز الثقافي العربي، ط : ٣ ، ١٩٩٢م.

١٨- العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي، د.إحسان النص،دار اليقظة العربية،د.ت.

١٩- العقد الفريد، تحقيق:د.عبدالمجيد الترحيني، دار الكتب العلمية-بيروت،ط:١، ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م.

٢٠- علم المعاني بين بلاغة القدامى وأسلوبية المحدثين، د.طالب محمد الزوبعي، منشورات جامعة قازيونس، ط:١ ، ١٩٩٧م.

٢١- العون في مفاخرات الكون، لمجموعة من المؤلفين تحقيق :محمد الششتاوي، دار الآفاق العربية، ط:١، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.

٢٢- اللغة العليا"دراسات نقدية في لغة الشعر" د.محمد معتوق، المركز الثقافي العربي ،ط:١، ٢٠٠٦م.

٢٣- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لابن الأثير ،تحقيق: كامل محمد عويضة،دار الكتب العلمية-بيروت، ط:١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

٢٤- مجمع الأمثال ، لأبي الفضل أحمد الميداني ، تحقيق:محمد أبو الفضل إبراهيم،دار الجيل –بيروت،ط١٤١٦هـ / ١٩٩٦م.

٢٥- -المحاسن والمساوئ ، للبيهقي، دار الكتب العلمية-بيروت،ط:١، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

٢٦- المستطرف في كل فن مستظرف ،للأبشيهي ،منشورات دار مكتبة الحياة-بيروت، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.

٢٧- معجم البلدان، ياقوت الحموي، تحقيق:فريد عبدالعزيز الجندي، دار الكتب العلمية-بيروت، ط:١، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

٢٨- المعجم المفصل في الأدب، د.محمد التونجي، دار الكتب العلمية-بيروت،ط:١، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.

٢٩- معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة،مؤسسة الرسالة،بيروت ، د.ت.

٣٠- المفاخرات الباهرة بين عرائس متنزهات القاهرة، عز الدين المقدسي (ت٨٢٠هـ) تحقيق : محمد الششتاوي، دار الآفاق العربية، :١، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.

٣١- مفاخرة بين مكة المكرمة والمدينة المنورة، محمد بن سليمان (ت ق ٨هـ) تحقيق : محمد الششتاوي، دار الآفاق العربية، ط:١، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م .

٣٢- مقدمة ابن خلدون ، عبدالرحمن بن خلدون، دار الكتب العلمية- بيروت، ط:١، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.

٣٣- منهج المناظرة في التراث وأدبيّات الحوار " مقالة " مجلة التراث العربي، اتحاد الكتاب العرب-دمشق ، العدد ٩١ - السنة الثالثة والعشرون - رجب ١٤٢٤هـ/ أيلول "سبتمبر" ٢٠٠٣م.

٣٤- النص الشعري وفضاء المدينة المنورة "مقالة " د.عالي القرشي،جريدة الرياض، العدد ١٤٨٥٧ بتاريخ١ربيع أول١٤٣٠هـ-٢٦ فبراير٢٠٠٩م.

٣٥- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب،الشيخ أحمد التلمساني، تحقيق: إحسان عباس،دار صادر- بيروت ، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

٣٦- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لابن خلكان، تحقيق د.يوسف طويل،ود.مريم طويل، دار الكتب العلمية-بيروت، ط١: ١٤١٩،١هـ/١٩٩٨م.

٣٧- ياقوت الحموي الرومي: الجغرافي الرحالة والمؤرخ الكاتب،جورج خليل مارون، دار الفكر العربي-بيروت، ط:١، ٢٠٠٣م.